هيفاء البشير.. مسكونٌ بها

أسعد خليفة

كانت عقارب الساعة تزحف متثاقلة تحاول الوصول إلى الثانية عشرة ليلًا معلنة انتصاف تلك الليلة من ليالي رمضان الخير عندما نظرتهما (الساعةَ وهي)، مغادرًا القاعة الرئيسة في منتدى الرواد الكبار على نيَّة الخروج بعد انقضاء سهرة فنية من الصنف الممتع الأصيل الثقيل، عندما حجبتني بوقع حضورها الآسر ودويّ همسها الآمر: تنضم لاجتماعنا؟

اللقطة الثانية:

الفن.. مشروع جماليٌ للواقع

أول يافطة تشمخ أمامي عندما أتسلل حذرًا إلى محراب عملي في مشروع توثيقي آخر لمكان أو إنسان أو لحَدَثٍ يجمعهما لكن مع هيفاء البشير تعجز النظرية عن التطبيق، إذ الواقع هو الأجمل.. وكذلك هن المؤثِّرات والمؤثِّرون يفرضون عليك إيقاف اللحظة وتثبيتها على شريط ذاكرتك في القائمة الذهبية منها، وتخليدَها مرئية مسموعة مقروءة.

إن من أدب المكان والمَقام ونحن نتشرف اليوم مع مؤسستكم الراسخة ثقافة وفكرا، مؤسسة عبد الحميد شومان، بالاحتفاء بضيفة هذا العام العشرين بعد الألفين للميلاد، عدم تكرار ما تجود به قرائح الأحبة والمحبين المشاركين في هذا الفرح والوفاء لصاحبته، بسرد السيرة والمسيرة لسيدة العطاء والنُّبل هيفاء البشير. وأخالني لا أجانب الصواب عندما أقول لكم: إن من يوجه بَوْصَلَتِهِ الإبداعية مرة نحو هذه السيدة سيظل تعود إليها بفعل جاذبيتها التي يصعب الانفلات منها.

سأروي لكم حكاية واحدٍ من كثير، لمنتجات تسجيلية بالصورة والصوت وبالصمت أحيانا، تشرفت بأن شدتني هيفاء البشير إلى أن تكون نموذجي فيها الذي أحببت أن يُحتذى به لتمام الغاية من وضع الفكرة وصياغتها، موضوعيًّا وفنيًّا وتنفيذيًّا، وصولًا إلى المتلقي من بعد حيثما كان في هذا العالم باستخدام أمثل للأدوات الفنية والترجمة إلى غير العربية.

أعطني أُمًّا.. أُعطك أُمَّةً

هو الفيلم التسجيلي من كتابتي وإخراجي، الذي أتشرف بعرضه اليوم على شاشات مؤسسة عبد الحميد شومان الحاضنة لهذا الحدث. هذا الفيلم هو محاولة لم تكتمل بعد لجمع كل المُنجَز الإنساني المادي منه والمعنوي في بعدي الفعل والفكر لهيفاء البشير، والذي بدأت العمل عليه متأخرًا عليها كثيرًا عام 2008. وتاليًا بعض من المسارات والدروب التي أوصلتني إلى حيث يقع النموذج الأمثل لتمام الغاية بإيصال الفكرة من خلاله أو من خلالها، إذ احتوت عملية البحث والكتابة لهذا العمل التوثيقي الحائز على العديد من الجوائز والتكريمات محليًّا وفي المدى الأرحب على معلومات وأرقام إحصائية أوجبت علينا ذلك:

تؤكد الإحصاءات الرسمية للنوع الاجتماعي في الأردن أن المرأة فيه تشكل بالفعل نصف المجتمع، وقد بلغت نسبتها في الأعوام الأخيرة 48.5٪ من عدد السكان. وتشير هذه الإحصاءات كذلك إلى أن معدل المشاركة الفاعلة للمرأة في التنمية والتطوير بلغت فقط حوالي 14٪ بالنسبة للمجموع الكلي من عدد السكان.

أعطني أُمًّا.. أُعطك أُمَّةً

فيلم تسجيلي تم وضع فكرته وصياغتها لتحقيق هدف تفعيل دور المرأة في الحياة الأردنية، باستثمار أمثل لطاقاتها الكبيرة في البناء والتطوير، وذلك بخفض عدد غير العاملات وغير المنتجات من النساء اللواتي يدخلن ضمن قائمة المعالات التي تعد في الأردن من أعلى النسب في العالم، وتبلغ أربعة معالين لكل مواطن، وإدخالهن في نظام العمل والإنتاج طاقات كبيرة فاعلة، من خلال الرؤية الخاصة والسياق العام لهذا البرنامج الذي يخاطب وبزاويتين متقابلتين المرأة مباشرة، والمسؤول عن إتاحة المجال وتوفير الفرص المناسبة لها لتأخذ دورها المطلوب في التنمية والتطوير على كافة المستويات الحياتية.

أعطني أُمًّا.. أُعطك أُمَّةً

يأخذ من فكرة طرح النموذج الإيجابي بعناصره وأدواته الإعلامية والفنية الخاصة، وصولًا إلى جعله المثل الأعلى للمتلقي من جمهوره المستهدف يتبعه ويحاكيه ويقتدي به، إذ تم اختيار السيدة هيفاء البشير رائدة العمل الإنساني النسوي من بين النساء الأردنيات اللاتي استطعن تدوين أسمائهن في سجل نجاح المرأة، ولفت الانتباه إلى أهمية دورها وقدرتها على الوصول إليه، وتقديمه بالوجه الأكمل والملفت من خلال مفرداته وعناصره التي تأخذ من الشاشة الصغيرة الموجودة أمام كل امرأة ومسؤول عنها مكانًا لها، جمَع ووضع الشخصيات المطروحة في إطار لم يترك مكونًا لحياة المرأة خارجه وحدّده بالآتي:

أولًا: التشريع.

ثانيًا: الصحة.

ثالثًا: التعليم.

رابعًا: العمل.

خامسًا: العيش.

سادسًا: المشاركة السياسية.

سابعًا: المشاركة في الحياة العامة.

أعطني أُمًّا.. أُعطك أُمَّةً

يُقَدَّم في إطار البرامج التسجيلية التي تهدف إلى إيصال محتوى يحمل رسائل موجهة للتأثير إيجابيًّا تجاه التطوير والتغيير، وصولًا إلى غاية ما يمكن الوصول إليه من أهداف من خلال مادة تلفزيونية موجهة وهي:

- الحفز على الحركة بقصد الوصول إلى تَمَثُّل النموذج المطروح بالوسائل والأدوات التي تم الإشارة إليها.
- تبني الأفكار المطروحة وحملها وإيصالها إلى الآخرين مباشرة أو توجيههم إلى مصدرها وبالتالي زيادة نسبة المشاهدة للبرنامج.
- تحريك الساكن داخل المتلقي من أفكار ووسائل تغذي الفكرة الأساسية وتحقق مزيدًا من أهدافها.

وقد اخترنا لتقديم البرنامج الشكل والإطار التسجيلي الذي يعتمد:

- الحديث المباشر من شخصية الحلقة للمشاهدين دون إغفال عنصر الزمن.
- التصوير الحي والاستعانة بالأرشيف لتغطية ما يقال بالصورة الأكثر تأثيرًا ومصداقية.
- الاستخدام الأمثل للرسم ثنائي وثلاثي الأبعاد للجداول ووسائل الإيضاح المعروضة.
- الاستعانة بعدد مناسب من الشهادات والمشاركات التي تؤكد ما يُقَدَّم وتعرضه من زوايا أخرى.

- الاستخدام الخاص للمؤثرات المسموعة والمرئية لضبط إيقاع الصوت والصورة بما يناسب الموضوع.

اللقطة الثالثة:

طَويتُ همّي.. خَلعتُ غَمّي.. أَنَبْتُ إليكَ.. دَخلتُ رِحابَكْ
غَدَتِ الدموع.. عندك شموع.. أَبَيْتُ الرجوعَ أَنالُ ثوابَكْ

هي تميمتي من منمنمات وصالي أتلوها أورادًا كلما نويت الوَصل ودخول الفَصل إلى مشروع جمالي جديد.

أعطني أُمًّا.. أُعطك أُمَّةً

أتمنى أن ينال رضاءَكم وإعجابكم بعد أن يحظى بمشاهدتكم وإصغائكم في هذا اللقاء الطَّقسي الحميمي في حضرة سيدة العَطاءِ والنُّبْلْ، أم مازن هيفاء البشير حفظها المولى بخير وسلامْ وعطاء متجدد ودائمْ.